

مجلّة الواحات للبحوث والدراسات
ردمد 7163- 1112 العدد 15 (2011) : 229 - 449
http://elwahat.univ-ghardaia.dz

الصحراء الجنوبية الشرقية الجزائرية من خلال المصادر الجغرافية الإسلامية وكتب الرحلات المغربية خلال العهد العثماني (وادي ريغ نموذجا)

الطيب بوسعد
قسم التاريخ المركز الجامعي لغرداية
غرداية ص ب 455 غرداية 47000 ,الجزائر

تمهيد

ارتأينا قبل الولوج في الموضوع مباشرة، القيام بدراسة تمهيدية تستعرض الخصائص الطبيعية للجنوب الشرقي الجزائري، حتى يتسنى لنا الوقوف على الملامح التضاريسية ومعرفة الطابع المناخي للمنطقة، والغطاء النباتي السائد، والموارد المائية المنسابة على سطوحها والغائرة في جوفها .

ثم آثرنا كذلك أن نعطي إلمامة تاريخية وجيزة عن الجنوب الشرقي الجزائري في القديم والوسيط كتوطئة للفترة الحديثة وبالتالي تكون الحلقات الزمنية للسلسلة التاريخية الممتدة مترابطة، لا يعتريها تقطع قد يثير التباسا، وهنا ركزنا على دور المؤرخين والجغرافيين المسلمين في اكتشاف مجاهل صحرائنا الفسيحة بالمعاينة والوصف.

وكان من الضروري أن نخصص دراسة قائمة بذاتها تتناول الرحالة والجغرافيين العرب والمسلمين في العصور الوسطى والحديثة، وذلك نظرا لما حوته كتبهم من معلومات قيمة عن الموضوع، محل الدراسة، وبالتالي فلا غنى للباحث عن العودة إليها في معرفة الأوضاع السياسية والاقتصادية والاجتماعية والثقافية للجنوب الشرقي الجزائري.

1. الخصائص الطبيعية للجنوب الجزائري (الصحراء الجنوبية الشرقية نموذجا)

يمكن تقسيم الصحراء الجزائرية الكبرى من الناحية الطبيعية إلى إقليمين بارزين هما:

الجنوب الشرقي والجنوب الغربي، وهذا من باب تسهيل الدراسة الجغرافية، لوجود مظاهر التباين والتجانس بينهما في آن واحد، من حيث التضاريس والمناخ والغطاء النباتي والموارد المائية.

وتميز صحراءنا الفسيحة ثلاثة مظاهر تضاريسية متباينة: الحمادة وهي عبارة عن هضاب

تغطيها صخور جيرية ممتدة في شكل صفائح بطاقية، أما الرق فهو عبارة عن مناطق مستوية، تسودها الصخور ويتناثر فيها الحصى وتسمى بالسهول الصخرية مجازا، وأخيرا العرق، وهي بمثابة منخفضات تكسوها الكثبان الرملية وتنتشر بها الواحات وتزخر بالمياه الجوفية، وتشغل العروق مساحة واسعة النطاق من الصحراء الجزائرية، وأهمها العرق الشرقي الكبير في الجهات الشرقية، والذي يمتد من الحدود الجزائرية التونسية إلى المنخفض الفاصل بين هضبة تادميت والمنيعة، ويليه العرق الغربي الكبير الذي يسود من بني عباس في بشار إلى غاية هضبة المنيعة شرقا[1].

وتنطبع الصحراء الجزائرية عموما بخصائص مناخية حارة وجافة، وبالتالي تتسم بضآلة التساقط المطري، الذي لا يتجاوز معدله 200 ملم سنويا، وهي شتوية على الهوامش الشمالية، في حين أنها صيفية على الهوامش الجنوبية، ويمكن اعتبار الإقليم الجنوبي الغربي الأقصى حرارة وخاصة على مستوى المثلث الناري، حيث تصل درجة الحرارة في هذا الحيز الجغرافي (بشار– أدرار – تندوف) إلى أقصى مستوياتها، مسجلة 56° في تندوف، وهي أقصى درجة حرارية في العالم [2]، ونتيجة للطابع المناخي الحار والجاف بسبب ندرة الأمطار، فإن الحياة النباتية فقيرة [3] ولا سيما في وسط الصحراء، حيث إقليم تنزروفت، وعليه يقتصر الغطاء النباتي على حشائش الإستبس والطحلب الشوكي، باستثناء الواحات الغنية بأشجار النخيل لوفرة المياه الباطنية، في حين نلمح ظاهرة التنوع النباتي في مرتفعات الهقار بفضل العلو الشاهق (قمة تاهات 2000م)، والأمطار المدارية الصيفية.

ومع كل ما ذكرنا من تطرف طبيعي، فإن الله تبارك وتعالى قد حبا صحراءنا بشرايين مائية تنساب في مختلف جهاتها، وهي بمثابة عروق الجسم التي تضخ فيه دما نابضا بالحياة، ونلاحظ أنها تنساح من حيث جريانها ومنابعها من السفوح الجنوبية للأطلس الصحراوي ومن قمم الهقار، وتتباين مصباتها بين الشطوط والسبخات، كما تغوص في الرمال وتغور إلى الباطن، لتنبجس مجددا في شكل مياه جوفية دافقة[4] .

ونستخلص مما سبق، أن منطقة الجنوب الشرقي الجزائري – محل الدراسة – تندرج ضمن المنخفضات الصحراوية، المكسوة بالكثبان الرملية والآهلة بالواحات، ذات الانسياب المائي السطحي والباطني، فهي أغنى مناطق البلاد بالمياه الجوفية – حسب الدراسات الجيولوجية الحديثة– .

وقد شكلت هذه الميزات عوامل متضافرة ساعدت على الاستقرار البشري وانتعاش الحياة الاقتصادية والاجتماعية، مما أهلها لأن تكون مراكز للإشعاع الثقافي عبر العصور والأزمنة التاريخية.

2. الصحراء الجزائرية عبر التاريخ (الجنوب الشرقي نموذجا)

إن الجنوب الجزائري، والصحراء الإفريقية الكبرى، ظلت مغمورة من الناحية التاريخية لدى الأوروبيين وبقيت مجهولة بالنسبة إليهم طيلة عدة قرون، ولم يقدم الرحالة القدماء من الإغريق والرومان [5] إلا معلومات ضحلة ومحدودة عن هذه المناطق.

ومن المعروف أن بعض المناطق الصحراوية في الجزائر، قد احتضنت حضارات عريقة، لا تزال آثارها ظاهرة للعيان إلى اليوم، تشهد عليها الرسومات المنحوتة على صخور جبال الطاسيلي، والتي تعود إلى فترة ما قبل التاريخ .

وتثبت الدراسات المتخصصة في التاريخ القديم وجود صلات تجارية واسعة النطاق بين المناطق الشمالية والصحراوية من خلال الأسواق العديدة المقامة على تخوم الصحراء، والتي مثلت مراكز حيوية للتبادل السلعي، حيث شهدت الفترة الفينيقية في الجزائر حركة انتقال السلع عبر القوافل التجارية بشكل حثيث، استيرادا وتصديرا، وتمثلت البضائع القرطاجية في الأقمشة والحلي والحبوب، في حين تجلت السلع الصحراوية في الذهب والجلود والعبيد[6] .

وتميزت فترة الاحتلال الروماني بإقامة القواعد العسكرية على الهوامش الصحراوية الشمالية، عبر طرابلس وسبيطلة[7] وقفصة وتبسة وجنوب موريطانيا القيصرية، وذلك بهدف رصد التحركات السكانية ووضعها تحت الرقابة العسكرية ومحاولة بسط نفوذه الاستعماري على المنطقة[8] .

ومما لا شك فيه أن الفترة الإسلامية لبلاد المغرب، قد عرفت علاقات مبكرة ووثيقة مع الجهات الجنوبية، فمن الثابت تاريخيا أن تيار الفتح الإسلامي للجزائر والمغرب العربي قد اختار المناطق الداخلية مسارا استراتيجيا له، تجنبا للمراكز البحرية البيزنطية المنتشرة على طول السواحل الشمالية أمام ضعف الأسطول البحري الإسلامي، وهو ما سمح للقوات العسكرية الإسلامية ملامسة التخوم الصحراوية كفتوحات عقبة بن نافع في الصحراء الليبية والجزائرية، والتي انتهت باستشهاد هذا القائد الفاتح بتهودة سنة 64 هـ/638 م وهي قرية سيدي عقبة ببسكرة[9] الواقعة في المنطقة الجنوبية الشرقية .

وبالمقابل عرف عصر الدويلات الإسلامية بالمغرب سواء الإنفصالية، كدولة بني مدرار الخارجية بسجلماسة (140 هـ/757م) والرستمية بتيهرت (160 هـ/776م) والإدريسية بفاس (172 هـ/788م) أو الدولة الأغلبية بالقيروان (184 هـ/800 م) التابعة سياسيا للخلافة العباسية بالمشرق، اتصالات تجارية نشيطة مع بلاد السودان آنذاك، حتى سميت دولة بني مدرار السجلماسية، بدولة القوافل التجارية[10]، وكانت الصلات أوثق وأعمق مع الصحراء الإفريقية الكبرى على عهدي المرابطين والموحدين[11]، حيث كانت حركة التجارة ونشر الإسلام، تسيران في خطين متلازمين .

ويلاحظ أن العلاقات بين شمال المغرب الإسلامي وجنوبه الغربي والصحراء الإفريقية الكبرى ولا سيما ما يعرف بجنوب غرب إفريقيا السوداء، أبكر نشوء وأعمق ترابطا لكون هذه المناطق تمثل مصدرا غنيا للثروات التجارية الهامة المتمثلة في الذهب والعبيد.

3. الجنوب الشرقي الجزائري من خلال وصف الرحالة والجغرافيين العرب والمسلمين

إن القول المأثور "ولد الإنسان راحلا" يعني أنه جبل بالفطرة على حب الترحال، وهو قول يكاد ينسحب على المسلمين – زمن تطورهم الحضاري – أكثر مما ينطبق على غيرهم من الشعوب التي كانت تقبع وراء أسوار التخلف والجهل، ولعل السبب في ذلك يكمن في اتساع أقاليمهم وازدهار أوضاعهم الاقتصادية والاجتماعية والثقافية، وكان حافزهم على الرحلة نشدان المعرفة وتوخي الاطلاع على أحوال غيرهم من الأمم أو تأدية واجبهم الديني المتمثل في فريضة الحج، فضلا عن رغبتهم في ممارسة التجارة.

وهكذا انساح الكثير منهم عبر مختلف البلدان واخترقوا الآفاق وتجشموا الصعاب ولم يعبأوا بالأهوال والأخطار، فاشتهر منهم الرحالة المشارقة والمغاربة والأندلسيين في العصور الوسطى والحديثة على السواء.

وإذا أسقطنا الموضوع على أهل المغرب وجدنا عددهم يربو على العشرين، وقد سجلوا ما وقع تحت أعينهم وما لفت أنظارهم وما أثار انطباعاتهم، فوصفوا البلاد وصوروا العباد وتفانوا في جمع المعلومات الجغرافية والتاريخية والحضارية فاستفادوا وأفادوا(12).

ويكفي أن نقدر مدى الخدمة التاريخية التي أسدوها لنا، أنهم أول من تعرف على أسرار المناطق الصحراوية من خلال ذكرهم لمعالمها وظروفها السياسية والحضارية في كتبهم الجغرافية(13) من أمثال أبي القاسم محمد بن حوقل البغدادي (367 هـ / 977 م) الذي ألف كتاب " صورة الأرض"، دون فيه جزءا مما شاهده من الصحراء الكبرى، ومحمد الشريف الإدريسي (561هـ/1165م)، من خلال كتابه: "نزهة المشتاق في اختراق الآفاق"، والذي اقتبس منه الأستاذ المرحوم اسماعيل العربي القسم الخاص بالقارة الإفريقية وجزيرة الأندلس وحققه في سفر خاص(14) وللإشارة فالكتاب ينطوي على إشارات هامة عن الصحراء الجزائرية والمغاربية ولو كانت ضئيلة في عمومها، ويليه أيضا ابن سعيد المغربي الأندلسي (685 هـ/1286 م)، الذي دون أخبار رحلاته ومشاهداته في مدونه الموسوم "كتاب الجغرافيا"(15)، وهو بدوره تضمن بعض الأخبار المقتضبة عن صحرائنا الجنوبية الشرقية، وكذلك محمد ابن بطوطة الطنجي (979هـ/1377م)، الذي توغل في بلاد السودان في أعقاب رحلته الثالثة، وسجل لنا محصلة مشاهداته عن الصحراء الإفريقية الكبرى بما فيها الجزائرية، في كتابه المسمى "تحفة النظار في

غرائب الأمصار وعجائب الأسفار"[16].

والمذكورون سالفا من أولئك الجغرافيين العرب والمسلمين، ينتمون زمنيا إلى فترة العصور الوسطى، وما ورودهم في هذا السياق إلا كنموذج فقط وسط زمرة من نظرائهم، الذين يرجح زيارتهم للمناطق الجنوبية الشرقية الجزائرية أو غيرها من المناطق الصحراوية الإفريقية الكبرى، نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر، اليعقوبي (ق3 هـ/ 9م) في كتابه "البلدان"، والمقدسي (4هـ/10م) في كتابه "أحسن التقاسيم في معرفة الأقاليم" والبكري(ق 5 هـ / 11 م) في كتابه "المسالك والممالك" وابن الفقيه الهمذاني (ق 3هـ/9م) في كتابه "مختصر كتاب البلدان" وياقوت الحموي (626هـ / 1228م) في مؤلفه "معجم البلدان"[17]، كما تحفل أيضا الفترة الحديثة، بعدد لا يستهان به من الجغرافيين العرب والمسلمين الذين وصفوا المناطق الجنوبية الشرقية، والصحراء الإفريقية الكبرى.

ويأتي في مقدمتهم الحسن بن محمد الوزان الفاسي، المعروف عند الغرب بليون الإفريقي (ت حوالي 957 هـ/1550م)، الذي قام برحلة إلى الصحراء الجزائرية مستقصيا عنها بنفسه أو معتمدا على مصادر إخبارية وافرة المعلومات ويكفي أنه ذهب إلى خمسة عشر مملكة في بلاد السودان، وكان ذلك في القرن 10هـ / 16م[18] .

ويعتبر أبو سليم عبد الله بن محمد بن أبي بكر،المعروف بالعياشي المغربي (1037 – 1090هـ/1628 – 1679م) من أبرز الرحالة المغاربة الذين دونوا مشاهداتهم خلال أسفارهم عن الصحراء الجزائرية في العهد العثماني، إلى جانب كونه من أشهر المحدثين وأكبر الصوفيين في المغرب الأقصى الذين صنفوا العديد من الكتب في هذه المجالات[19].

إلا أن العياشي اشتهر برحلته التي سماها " ماء الموائد "، وقد ضمنها أخبارا وافية وأدرج فيها حوادث مختلفة عاينها أو سمعها أثناء سفره عبر طريق الجنوب من المغرب إلى المشرق أين أقام بعواصمه طلبا للعلم أو رغبة في الحج، فشرق ثلاث مرات، خلال سنوات (1059–1064–1073 هـ/ 1649–1653–1661م) انطلاقا من سجلماسة (قرب واحة تافيلات جنوب المغرب الأقصى) ثم إلى توات وورقلة وطرابلس، نافدا إلى مصر، لينتهي به المطاف في الحجاز، فوصف الصحراء وجغرافيتها كما تحدث عن السكان وأخلاق الناس وعوائدهم ومعيشتهم، ذاكرا أحوال العلماء والصلحاء كما اهتم بالتجارة أيضا[20].

وقد خصص العياشي صفحات عديدة من كتابه للجنوب الجزائري ولمدنه ولعلمائه ولتاريخه السياسي وأوضاعه الاقتصادية والاجتماعية، ورغم ما تخلل هذه الرحلة من استرسال واستطرادات طويلة، إلا أن قيمتها استقطبت أنظار المستشرقين الذين ترجموا نقولها كاملة أو جزءا منها[21]، كما أثنوا عليها[22].

ولا يقل شهرة عن العياشي في العهد العثماني الرحالة الحاج بن الدين الأغواطي، برحلته الموسومة: "رحلة الأغواطي في شمالي إفريقية والسودان والدرعية"، ترجمها عن العربية إلى الانجليزية وليام هودسن (قنصل أمريكا بالجزائر والمراسل الأجنبي للجمعية الملكية الآسيوية بلندن) وطبع كتاب رحلة الأغواطي على ذمة مؤسسته الترجمة الشرقية، لندن، 1830.

ولأهمية الرحلة عكف الفرنسيون على ترجمتها وهو ما قام به دافيزاك (D'AVEZAC) في حدود سنة 1833م.

وحسب الدكتور أبو القاسم سعد الله فإن تاريخ النص غير مؤكد، والغالب على الظن أن يكون قد كتب بين (1826 م –1829 م)، ومهما كان من أمر فإن الرحلة نص تاريخي هام جدا عن الجزائر في العهد العثماني وتحديدا الحيز الجغرافي محل الدراسة – أي الجنوب الشرقي – فهي تحتوي على معلومات قيمة في النواحي الجغرافية والاقتصادية والاجتماعية والبشرية واللغوية عن ورقلة وتقرت ووادي سوف . وقد أولى شيخ المؤرخين الجزائريين – الدكتور أبو القاسم سعد الله – للرحلة أهمية خاصة، فأقدم مشكورا على ترجمتها عن النص الانجليزي ونشرها في مجلة التاريخ وكتابه " أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر " (23) .

ولعل من الرحلات التي تستلفت النظر في العهد العثماني، تلك التي ألفها عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري (1107–1161 هـ/1695–1748م)، المعروفة ب"لسان المقال"، بدأها سنة (1156 هـ/1743م)، وكانت نهايتها سنة (1160 هـ/1747م)، وتضمن هذا المدون مذكرات المؤلف ويومياته، ونقولا من الكتب والوثائق المتقدمة، وما يهمنا منها "قسم المغرب" المسمى بالرحلة(24) .

ويحدد الدكتور المرحوم مولاي بالحميسي لتلك الرحلات الحديثة في العهد العثماني من قبل أولئك الرحالة أربعة أهداف (25) هي :

– الرحلة إلى الحجاز لأداء مناسك الحج:

وينطلق في ذلك من قول الرسول ﷺ "لا تشد الرحال إلا لثلاثة مساجد: المسجد الحرام ومسجد الرسول والمسجد الأقصى"، وعملا بهذا الحديث النبوي الشريف، أمسك بعصا الترحال وشد المطايا مجموعة من العلماء والرحالة المغاربة إلى البقاع المقدسة، فاسترسلوا في وصف رحلاتهم الدينية من حيث إقامتهم وتأدية شعائرهم واتصالاتهم أو التقائهم بالعلماء في طريقهم للحج أو في مكة والمدينة المنورة، وأضحت كتبهم بفضل تقييداتهم بمثابة دلائل أسفار.

نذكر منهم على سبيل المثال، العياشي المغربي الذي تشرق لهذا الغرض ثلاث مرات كما أسلفنا الذكر في الصفحات السابقة .

– الرحلة في طلب العلم:

كان الدارس إذا استوفى تعليمه الأولي في وطنه، قرر شد الرحال إلى حواضر العلم بإحدى عواصم العالم العربي، غرفا من علمائها بحضور الدروس والحصول على الإجازة العلمية التي تعادل – في يومنا هذا – الشهادة التعليمية في المستوى العالي.

والرحلة ذات الأهداف العلمية موروث حضاري إسلامي من العصور الوسطى، درج عليه طلاب العلم إلى العصور الحديثة .

وفي الفترة العثمانية بالجزائر نرصد بعض النماذج منها، وعلى رأسها رحلة ابن زاكور الفاسي (1075–1120 هـ / 1663–1708م)، الموسومة ب" نشر أزاهير البستان فيمن أجازني بالجزائر وتطوان"، وهي رحلة قصيرة، تقع في تسعة وستين صفحة، دون فيها قدومه إلى الجزائر بحرا سنة (1093هـ/1683م)، للاجتماع بعدد من علماء المدينة والأخذ عنهم واستجازتهم، ومنهم الشيخ محمد بن سعيد قدورة (ت1097 هـ / 1687م)، الذي أجاز هذا الرحالة المغربي سنة (1094 هـ / 1684م)[26].

وإن أسقطت الرحلة العلمية الوصف الجغرافي للبلدان والمجتمعات، فإنها بالمقابل ركزت على تقييد أخبار الحياة الثقافية والعلمية، وهو جانب لا يمكن غمطه.

ونشير بهذا الصدد إلى أن الرحالة قد يجمع في آن واحد بين الهدفين من رحلته ألا وهما الحج وطلب العلم، وهذه الحالة معرفتها تغنينا عن استقصاء خبرها.

ولا يمكن أن نختم هذا الموضوع دون التنويه بدور مثل هذا النوع من الرحلات في إفادة الموضوع محل الدراسة الذي يبحث في مراكز الإشعاع الثقافي بالجنوب الشرقي الجزائري خلال العهد العثماني.

– الرحلة الاستطلاعية:

وفي هذا الصنف من الرحالين نذكر الحسن بن محمد الوزان الفاسي المعروف عند الأوروبيين بالأسد الإفريقي (Lèon l'africain) الذي شرع في رحلته إلى المشرق حوالي سنتي (1515 –1516 م) إلى أن قبض عليه قراصنة صقلية فسيق إلى البابا ليون العاشر[27].

ورحلة الحسن الوزان الفاسي تندرج ضمن الغرض الاستطلاعي الذي تحركه روح المغامرة والرغبة في اكتشاف مجاهل إفريقيا وتدوين المشاهدات وهو ما جسده في كتابه "وصف إفريقيا"[28]، والملاحظ أن الأستاذ مولاي بالحميسي– رحمه الله – لم يفرد لهذا الرحالة دراسة خاصة في كتابه "الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني"، واكتفى بإيراد ذكره في السياق، رغم وجود الترجمة الفرنسية وتوفر الترجمة العربية منذ 1983، ورغم كذلك زيارة هذا الرحالة للجزائر في مطلع القرن 16 م أي خلال العهد العثماني [29]، وهذه الرحلة مفيدة أيما إفادة للبحث في الجنوب الشرقي الجزائري خلال العهد العثماني ثقافيا واقتصاديا واجتماعيا وسياسيا.

- الرحلة للسفارة:

ظهر هذا النوع من الرحلات في القرن 16م، فكان سلاطين المغرب السعديون وبعدهم العلويون يعينون بعض المقربين لهم للاضطلاع بمهام دبلوماسية في البلدان الأجنبية أو الإسلامية لدى ملوكها، وهذا ما وقع مثلا للتمقروتي (ت 1003 هـ / 1594م) لما انتدبه أحمد المنصور مبعوثا إلى اسطنبول مرتين (1581-1589) في مهمتين دبلوماسيتين، وتحدث هذا الأخير عن الجزائر أثناء ذهابه وإيابه حينما نزل ببعض مدنها الساحلية، وقد وردت معلوماته عن بلادنا في كتابه الموسوم: "النفحة المسكية في السفارة التركية"[30]، وكذلك ما جرى للوزير الزياني (1147-1249 هـ / 1743-1833 م) سنة 1786 عندما عين على رأس سفارة إلى عاصمة الدولة العثمانية، بعهد من السلطان مولاي عبد الله، فنزل الزياني بوهران ضيفا على الباي محمد الكبير ثم التحق بتلمسان ومكث بها طويلا في كنف العلماء، ثم يمم وجهه شطر الجزائر، كما زار نفس المناطق حيال عودته من المشرق ورغب في الاستقرار بتلمسان لولا إلحاح السلطان المغربي على عودته إلى المغرب ودون هذه الأخبار في كتابه "الترجمانة الكبرى" وقد حققها عبد الكريم عبد الكريم الفلالي سنة (1387هـ / 1967 م) تحقيقا منقوصا، وعلى هذه الطبعة اعتمد الدكتور مولاي بالحميسي في دراسته عن الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني[31]، ورغم أن هذه الرحلات الأخيرة لم تصف لنا الجنوب الجزائري إلا أنني أوردتها من باب الإفادة.

4- الخصائص الجغرافية

يقع إقليم وادي ريغ في الشمال الشرقي من الصحراء الجزائرية، منتصبا في منخفض مستطيل الشكل، طوله 160 كلم، ويتراوح عرضه بين 30 و40 كلم، وتتميز تضاريس المنطقة وضواحيها بتنوعها من حيث التربة والغطاء النباتي[32]، فمنطقة المغير تتميز بسهولها وتربتها الغضارية وبكثرة أوديتها التي تنساب مع سقوط الأمطار، وتختفي في مواسم الجفاف، كما يسودها غطاء نباتي كثيف يشكل مرتعا خصبا للمواشي، على حين تعرف منطقة "جامعة" بسهولها المستوية[33] وسبخاتها الكثيرة، بينما تتميز منطقة تقرت وضواحيها بكثبانها الرملية التي تطوقها شرقا وغربا، تتخللها سهول مالحة وبعض الهضاب الطينية الجرداء[34].

ينطبع إقليم وادي ريغ بمناخ قاري جاف وحار بمتوسط 40°، وبالتالي فهو يتسم كبقية الأقاليم الصحراوية بضآلة أمطاره المتساقطة بشكل غير منتظم، والتي غالبا ما تؤول إلى شط ملغيغ أو تنفذ إلى الرمال وتغور في أعماق الأرض، وقد تتسبب أحيانا في حدوث فيضانات غامرة تترتب عنها خسائر بيئية وبشرية جسيمة.

ورغم ضآلة المصادر المائية الجارية، وكثرة السبخات، فإن هذا الإقليم يزخر بالمياه الجوفية التي تنبجس في شكل عيون دافقة، عند استنباطها، وعليها معتمد السكان في الشرب والري،

وهذا نظرا لزوال منسوب مياه الأودية في فترات الجفاف[35].

وتسود منطقة وادي ريع أنواع كثيرة من النباتات المتجذرة في أعماق الأرض والتي لا تتأثر بالجفاف أو الأملاح، وقد أسهب الأستاذ ابراهيم قادري في ذكر أنماطها[36].

وقد وردت أخبار وادي ريع في المصادر الجغرافية والتاريخية، فقد سماه ياقوت الحموي بالزاب الصغير[37] وسماه ابن خلدون "بلاد ريغ" أو "أرض ريغ" وهو الاسم الذي لازمه منذ نشأته وعبر تاريخه إلى اليوم.

أما في الوقت الحالي فيعرف بوادي ريع كوادي سوف ووادي ميزاب، وقد خصه ابن خلدون بوصف دقيق، حدد فيه موقعه العمراني وأصوله البشرية وغلاته الزراعية وموارده المائية، بقوله: "إن ريغة وسنجاس من بطون مغراوة قد اختطوا قرى كثيرة في عدوة واد ينحدر من الغرب إلى الشرق، ويشتمل على المصر الكبير والقرية المتوسطة، والأطم، وقد رف عليها الشجر ونضدت حوافيها النخيل وانساحت خلالها المياه وزهت ينابيعها الصحراء، وكثر في قصورها العمران من ريغة وبها تعرف لهذا العهد" [38].

ونستنتج مما ذكره ابن خلدون أن الوادي الجوفي الذي ينساب في أعماق الأرض، هو مصدر الينابيع والعيون المتدفقة إلى سطحها – والتي تروي غابات وبساتين النخيل [39] –، ومناط التعمير في الإقليم [40] .

ولتوفير مياه الري للبساتين والنخيل، عمد الفلاحون في هذه المنطقة، منذ القديم إلى حفر الآبار، التي تعمل على استنباط المياه واستخراجها إلى السطح، ثم تجري في السواقي وقنوات توزيع المياه أو ما يعرف "بالفوقارات"، وقد وصف ابن خلدون طريقة حفر الآبار والحصول على المياه في هذه الأرجاء في كتابه العبر حيث قال: "في هذه البلاد الصحراوية إلى وراء العرق غريبة في استنباط المياه الجارية، لا توجد في تلال المغرب، وذلك أن البئر تحفر عميقة بعيدة المهوى، تطلى جوانبها إلى أن يوصل بالحفر لحجارة صلدة فتحت بالمعاول والفؤوس حتى يرق جرمها، ثم يصعد الفعلة ويقذفون زبرة من حديد، لكسر طبقتها عن الماء ربما أعجل بسرعته عن كل شيء"[41].

ومثل هذه العيون التي تحدث عنها ابن خلدون يسميها العامة، عيون الإسلام أو "العوينات" تمييزا لها عن الآبار الحديثة، ولا ريب أن ابن خلدون الذي عاش طويلا ببسكرة، يعرف منابع وادي ريع[42]، وكانت هذه العيون تحظى بعناية خاصة، فيتم تنقيتها من الشوائب بواسطة الكنس، الذي يزيل عنها ما يغشاها ويلوثها، وهو ما أكده الرحالة " العياشي " حينما قال عن عيون أهل وادي ريع بأنها تكنس، أثناء زيارته للمنطقة في النصف الثاني من القرن 17م[43].

ومن جهته وصف الحاج ابن الدين المعروف بالأغواطي في الربع الأول من القرن 19م، مدينة تقرت – القاعدة العمرانية الرئيسية – لمنطقة وادي ريع بأنها كثيرة المنابع المائية العذبة،

رغم وجود سبخة ملحية تحيط بها، حيث قال في هذا الشأن: "وهي مطوقة بخندق من الماء، تصب فيه العيون"[44]، وهذه الشرايين المتدفقة ما هي في الأصل إلا مظهر لما تزخر به من مياه جوفية، تتسرب إليها من المناطق القريبة، ثم تطفو على السطح في شكل ينابيع فياضة، نابعة بالحياة والنعيم[45].

5- التركيبة البشرية لمنطقة وادي ريغ

قطنت ولا زالت تقطن مناطق وادي ريع قبائل وأجناس كثيرة، متداخلة في أنسابها وأصولها، تمازجت عبر الأزمنة التاريخية بفعل ظروف الحياة المشتركة ووحدة العادات والتقاليد وبفضل الاختلاط والمصاهرة، مما استعصى على الباحثين التمييز بين الأصول والأنساب، لولا بعض المصادر التي فكت طلاسم الإبهام حول هذه المسألة وقد حددها الباحث ابراهيم قادري في مصدرين هما: عبد الرحمان بن خلدون في كتابه العبر، وكذا الدرجيني في طبقات مشايخ المغرب[46].

ومن هذين المصدرين وربما غيرهما، أمكن تحديد أصول سكان وادي ريع بثلاث عناصر أساسية، تولد منها عنصر رابع، وتتمثل هذه العناصر فيما يلي:

- الرواغة

هم الذين تسمى بهم هذا الإقليم وإليهم ينسب، وقد أورد لفظ "الرواغة" الأغواطي في سياق حديثه عن سكان تقرت[47]، وينحدر هؤلاء من قبيلة زناتة البربرية، ويمثلون معظم سكان وادي ريع، الذين عمروا الإقليم واستقروا فيه منذ القديم.

وتعود أصول الرواغة إلى قبيلتي ريغة وسنجاس المغراويتين حسبما أورده ابن خلدون حين قال: "إن ريغة وسنجاس من بطون مغراوة"[48] الذين اختطوا القرى الكثيرة، وسكنوا قصور ريع القديمة مثل تالة، وسفاوة، وثغلات، وقداين وقصر غانم، وتوجين، وكدية بني غمرة وفطناسة، وتنسلي وتاميدونت وماريزو وغيرها من القصور التي اندثرت وطمست آثارها[49] كما أن سكان تقرت من أصول رواغية أيضا[50].

- العرب

هم الذين وفدوا على المنطقة في شكل هجرات فردية في بداية الأمر من الزيبان ومنطقة الجريد التونسي والمغرب، وهجرات جماعية بعد اجتياح قبيلتي بني هلال وبني سليم للمغرب الغربي، وهم يتوزعون على كامل مناطق إقليم وادي ريع وينقسمون إلى قسمين:

- العرب الرحل

أو الأعراب كما يسميهم ابن خلدون، ومن القبائل العربية البدوية التي استوطنت وادي ريع

هي بطون: رحمان وسلمية والدرايسة والعبادلية والفتايت وأولاد السايح وسعيد عمر وأولاد عبد القادر وأولاد مولات إذا أثبتت عروبتهم[51]، بالإضافة إلى الشعانبة[52].

– العرب المستقرون

الذين يعيشون على الفلاحة والزراعة ويسكنون الحواضر ويقيمون في العمائر المتطورة حسب الفترة المقصودة بالدراسة، ومن العرب الذين تمدنوا منذ غابر الزمن، سكان المغبر وسكان سيدي خليل والبارد والزاوية ومازر وبعض سكان جامعة وأهل سيدي يحي وسيدي عمران وتمرنة وسيدي راشد وسيدي سليمان وأكثر سكان تقرت وضواحيها وبعض سكان تماسين وبلدة عمر وكل سكان قوق [53]، ويمكن إدراج الشعانبة ضمنهم بعد تفضيلهم لحياة التوطن والاستقرار.

– الزنوج

هم من بقايا أبناء العبيد الذين سيق بهم من بلاد السودان على يد تجار النخاسة الذين اتخذوا من سوق تقرت همزة وصل بين الصحراء الإفريقية الكبرى وشمال المغرب العربي[54].

ومن السود من وفد من توات (قورارة)، بعد أن لاذوا بالفرار من أسيادهم وبعضهم من أبناء الموالي الذين فضلوا البقاء بالإقليم بعد نزوح الإباضيين، ومنهم من جاء عاملا وشغالا من بلاد السودان وربما من صحراء النوبة المصرية[55] وهؤلاء يسودون في جميع القرى والمداشر التي أقام فيها أجدادهم وآباؤهم أول مرة.

– المولدون

وهم مزيج من الدماء العربية أو البربرية بالدماء الزنجية، بفعل التزاوج بين السكان الأصليين والعرب الوافدين بالزنجيات[56]، وقد يكون هذا العنصر الجديد ناشئا عن المصاهرة التي تمت بين العرب المهاجرين إلى المنطقة والبربر الأقدم توطنا.

وعلى العموم فإن الموالي وهؤلاء المولدين، ينتسبون إلى البلد المنشأ، وهو يتوزعون عبر كامل قرى وادي ريع، ومع مرور الزمن وتعاقب الأجيال انصهرت جميع هذه العناصر في بوتقة واحدة، وأصبحت تشكل مجتمعا متجانسا، تحكمه روابط الأخوة الإسلامية والعادات والتقاليد المتشابهة زالت معها الاعتبارات العرقية.

– فرقة الحشاشنة والمجاهرية بتقرت

تشكل جماعة الحشاشنة عنصرا رئيسيا من سكان تقرت لكثافة عددهم ومكانتهم الاجتماعية المرموقة والاعتبارية، ولكن هذا الحضور الاجتماعي القوي لا يرقى بهم إلى قومية ذات نفوذ وهيمنة كما يتوهم البعض، وكل ما في الأمر أن التسمية ليست نسبا مستقلا وإنما لا

تعدو أن تكون وصفا مرتبطا بنشاط فلاحي وزراعي مناطه غراسة النخيل، "فرجال الحشان هم الفلاحون أو رجال الأعمال والتكسب" (57)، مما تجود به حرفتهم الآنفة الذكر.

ولا عبرة لقول البعض أن أصل التسمية تعود إلى الولي الصالح "سيدي الحشاني" بتونس وأتباعه بوادي ريع والزاب الأسفل(58)، كما أن ما ذهب إليه شارل فيرو في قوله: "أن جد الحشاشنة صحابي اسمه حسان من أصحاب عقبة بن نافع، استشهد معه في معركة تهودة، وأن الاسم قد تحرف من حسان إلى حشان"(59)، لا أساس له من الصحة.

أما الجماعة السكانية الثانية في تقرت فهي المسماة بالمجاهرية، وهي عند الكثير قبيلة متميزة، لجاهها ونفوذها السياسي والاقتصادي، حتى أرجع البعض نسبتهم إلى اليهود ومنهم شارل فيرو(60) وهو ما استبعده ابراهيم قادري معتمدا في ذلك على عدة تفاسير وأدلة ومنها الأسماء العربية التي يحملونها والمنسوبة إلى البلد الذي وفدوا منه كالكافي والطرابلسي والوزاني والنفطي واعتبر التسمية غير سليمة "فالمجاهرية" تصحيف لكلمة المهاجرية، وهم أولئك الذين نزحوا من تونس وطرابلس ونفطة والزيبان، لتعمير المدينة بنشاطهم الحرفي والتجاري، وعلى اعتبار أنهم يشتغلون في دواوين الحكومة وحيازة الأملاك العقارية والتجارة في المواد الغذائية والحرف الحرة كالنجارة والحياكة، بينما يمارس اليهود تجارة الذهب ويحترفون الصياغة والنقش على الذهب والفضة(61)، بالإضافة إلى أنهم مسلمون ويتكلمون اللغة العربية، وهو ما يؤكده أحمد توفيق المدني عندما قال عن أهل تقرت: "والمسلمون في دائرة تقرت المجاورة للأراضي التونسية من أحسن مسلمي الجزائر إيمانا ومحافظة على الأخلاق العربية الإسلامية، والعلوم العربية منتشرة انتشارا حسنا عز نظيره في غيرها من جهات القطر الجزائري"(62).

ولكن النسبة اليهودية، التي أطلقها شارل فيرو على المجاهرية لم تكن من تلقاء نفسه، وليس الوحيد الذي أثارها، فهذا الحاج ابن الدين الأغواطي يقرر أن "في تقرت جماعة من الناس يسمون "المجاهرية" وهم يقطنون حيا خاصا في البلدة، وقد كانوا في القديم يهودا... ومازالوا يتميزون بالملامح الخاصة باليهود، ومنازلهم مثل منازل اليهود، تنبعث منها رائحة كريهة وهم لا يتزاوجون مع العرب، ومن النادر أن يتزوج عربي من امرأة مجاهرية، ونساؤهم تظهر في الأسواق محجبات، ويتحدثن بالعبرية بينهن عندما يرغبن في إخفاء موضوع الحديث... ويختار حاكم تقرت كتابه وخواصه من المجاهرية، ولكنهم لم يتولوا أبدا وظيفة القضاء أو الإمامة..."(63).

وفي النص عدة قرائن تجعلنا نشتبه في انتمائهم اليهودي، ومنها عيشهم المنغلق في مجتمع الڤيتوهات، وهي خاصية يتميزون بها إلى اليوم، أي انعزالهم في أحياء خاصة بعيدا عن الاختلاط مع السكان الأصليين، وكذلك اتسامهم بعدم النظافة وعزوفهم عن المصاهرة المحلية، وكذا الحديث باللغة العبرية، بالإضافة إلى النفوذ الإداري وعدم السماح لهم بتولي القضاء والإمامة

وهذا يعني أنهم ذميون من أهل الكتاب.

والواقع أن هذه القرائن ليست مطلقة، لأن الأغواطي في مواطن أخرى ساق بعض الإشارات تنفي عنهم هذه الشبهة ومنها " اعتناقهم للإسلام ولو خوفا من السكان وذكر بالحرف الواحد:

و هم الآن مواظبون على قراءة القرآن ويحفظونه عن ظهر قلب[64].

وفي هذا الصدد يتساءل الدكتور أبو القاسم سعد الله عن مصادر الأغواطي فيما يتعلق بتاريخ المجاهرية، لعلها بالمشاهدة والمعاينة، وحسبه أن هؤلاء مسلمون، بل إنهم كما قال: "من أقوى المسلمين إيمانا ومن أكثرهم اعتزازا بالعروبة"[65]، أما ذكره لاستعمالهم اللغة العبرية في أحاديثهم فلعله التباس وخلط وقع للأغواطي فلربما هذا النطق كان أمازيغيا وليس عبريا كما توهم والله أعلم بالحقيقة!

6- النشاط الاقتصادي في منطقة وادي ريغ خلال العهد العثماني

- الزراعة

مارس سكان منطقة وادي ريغ الزراعة وتربية المواشي منذ غابر الزمن، وظلت الزراعة خلال العهد العثماني كقطاع حيوي وهام، يشكل المورد الاقتصادي لمعظم السكان ومصدر عيشهم.

ورغم صعوبة الطبيعة الصحراوية وضآلة الموارد المائية السطحية، إلا أن الفلاحين اعتمدوا على المياه الجوفية كمورد رئيسي في الري الزراعي، مما جعلها مقصدا للمهاجرين وقرارة للقبائل الوافدة من مختلف جهات الوطن وبخاصة من الأقاليم المجاورة كأولاد نايل والسوافة وغيرها من القبائل التي تشكل جزءا من النسيج الاجتماعي للسكان الحاليين.

وبفضل استصلاح التربة ومعالجتها، تحولت الأراضي المترامية الأطراف في وادي ريغ إلى بؤرة حيوية للنشاط الزراعي تدر بمختلف الغلات، ومن الطبيعي وبحكم البيئة الصحراوية للمنطقة أن تسود زراعة النخيل على أوسع نطاق، فقد أشار ابن خلدون في سياق حديثه عن وادي ريغ إلى غراسة أشجار النخيل التي تتلاءم وطبيعة المنطقة الغنية بالمياه الجوفية بقوله: "أما بنو ريغة فكانوا أحياء متعددة... وأكبر هذه الأمصار تسمى تقرت مستبحر العمران، بدوي الأحوال كثير المياه والنخيل"[66]، والحسن الوزان الذي زار المنطقة في القرن 16م أشار إلى وجود أملاك واسعة من حدائق النخيل في تقرت[67]، كما وصف العياشي بلدة تماسين في إقليم وادي ريغ بأنها كثيرة العمارة والنخيل[68].

وذكرت بعض المراجع أن بني جلاب – حكام تقرت – في العهد العثماني قد اعتنوا بزراعة النخيل من خلال حفر الآبار وشق قنوات صرف المياه واستعملوها في عملية الري، وبفضل هذه

الجهود وصل عدد النخيل في تقرت لوحدها إلى **300** ألف نخلة تتزود بالمياه من **450** بئر ارتوازية(69).

وهو ما أكده أيضا الحاج ابن الدين الأغواطي الذي زار تقرت في حدود سنتي (**1828**–**1829**)، حين قال: "يسود تقرت غابات من النخيل"(70)، تعبيرا عن كثرة عددها، وهو ما جعل إقليم وادي ريغ ينتج كمية كبيرة ومتنوعة من التمور، تزيد على خمسة عشر نوعا(71).

وقد أدت وفرة الشروط الزراعية التي أتاحتها الجهود المبذولة من طرف الفلاحين إلى إنتاج عدة أنواع من المحاصيل الزراعية وخاصة منها الفواكه، وقد ذكر لنا الأغواطي أمثلة عنها كالتين والعنب والتفاح والمشمش والأجاص(72).

ورغم أن الحسن الوزان ينفي زراعة القمح في تقرت وقال بأنه يستورد من قسنطينة في مقابل التمر(73)إلا بعض المراجع تثبت سيادة زراعة الحبوب على أنواعها كالقمح والشعير والذرة الصفراء بالإضافة إلى العديد من الخضر والأشجار المثمرة والتوابل ومنها الجزر والبصل والثوم والطماطم والفلفل والزيتون والرمان والخوخ والبطيخ(74).

– الصناعة

مارس سكان وادي ريغ في الماضي كثيرا من الصنائع والحرف اليدوية في منازلهم وفي دكاكين وحوانيت مجهزة لهذا الغرض وتنتشر عبر مدن هذا الإقليم، حتى قال الحسن الوزان عن تقرت بأنها عامرة بالصناع والنبلاء والأغنياء(75).

ولعل من أهم الصناعات السائدة في العهد العثماني هي ما يسمى اليوم بالصناعات التقليدية

التي تعتمد على المواد الأولية المتوفرة في المنطقة أو المجلوبة من غيرها كالطين ومشتقات النخيل والصوف والوبر والجلود وبالتالي فهي تشمل صناعة الملابس والأغطية ومشتقات النخلة كالسدة والمظلة والقفة والسلال(76) ويلخصها ابراهيم قادري في صناعة الغزل والنسيج (وأهمها الحنبل والبرنوس والقشابية والقندورة) والحدادة وتختص أيضا في صناعة السكاكين والفؤوس والمناجل والكوانين(77)، بالإضافة إلى صناعة الفخار كأدوات وأواني الطبخ والزينة ومنها القلال والكساكس والأباريق وغيرها، فضلا عن صناعة الجلود والمتمثلة في النعال والقرب والأثاث والمتاع وغيرها من المصنوعات الجلدية كالأحذية ناهيك عن تصنيع مواد النخيل الأولية وتحويلها إلى أقفاص ومظلات وسجاجيد وحصائر ومراوح وزنابيل وما إلى ذلك كالأبواب والجوابي(78).

وأضافت بعض المراجع صناعة بعض المواد الأولية المتوفرة كملح البارود، كما تصنع بتقرت الأسلحة التقليدية كالسيوف، وكذلك صناعة الأواني النحاسية والسروج والألجمة(79).

– التجارة:

إن سكان وادي ريغ لم يمارسوا التجارة كحرفة أساسية ولم يعرفوا النشاط التجاري كما عرفه جيرانهم وإنما عرفوا بتجارة استهلاك السلع (المواد الغذائية) المستوردة والسلع التي تأتي إلى أسواقهم العامرة بالتجار والتجار القادمين من كل فج.

وأكبر سوق وأشهره سوق تقرت الذي اكتسب شهرة كبيرة، وتعتبر مدينة تقرت مدينة التمر والرخاء وأهم مدينة بوادي ريغ، حيث عندها تلتقي كثير من القوافل المتوجهة إلى الجريد والسودان الإفريقي.

وبما أن وادي ريغ ينتج التمور بكثرة ويصنع الأقمشة الصوفية العادية فإن التجار يصدرون بعضا من هذه المنتوجات والمصنوعات ويشترون ما يحتاجه السكان كالأقمشة القطنية والعطريات والزيوت والبخور واللبان وغيرها من السلع.

وقد اكتسب سوق تقرت هذه المكانة لكونها نقطة انطلاق أيضا للقوافل المتوجهة نحو الشمال والجنوب ومع هذا التجاري فإن التجارة ليست بأيدي سكان الإقليم إلا نادرا، فتجارة المبادلة أكثرها كانت بأيدي أولاد دراج فهم الذين يملكون قوافل النقل إذ ينقلون على جمالهم الحمولات المستوردة من الشمال ويأخذون أحمال التمور إلى التل، أما التجارة القادمة من الجنوب والذاهبة إليه فبأيدي السوافة والشعانبة والسعيد عمر أما تجارة التفصيل وتجارة المواد الغذائية كالشاي والقهوة فبأيدي السوافة وبعض من أهل الإقليم، أما تجارة الكتان والأقمشة فبأيدي بني ميزاب وتجارة الذهب وتعاطي الربا فبأيدي اليهود[80].

وعبر طول وادي ريغ تمتد مراكز تجارية تتفاوت أهميتها، هي عبارة عن تجمعات سكانية تعرف بالقصور، وقد أجمع العديد من المؤرخين على أن تقرت نقطة من النقاط التجارية في الفترة الرومانية حيث كانت تربط أقصى الجنوب و بلاد السودان بالشرق الجزائري، فقد عرفت المنطقة إقبالا كبيرا من طرف التجار التونسيين، المغاربة، القسنطينيين، وهنا يمكننا معرفة الدور الكبير الذي لعبته القصور تجاريا منذ القديم إذ أن الرحلات التجارية تجتاز العروق والكتل الجبلية لتتوقف في هذه القصور للبيع والشراء والتزود بما تحتاجه من زاد، فالقصور تقع في نقاط وصول وانطلاق هذه القوافل[81].

وما يلاحظ أن المصادر الجغرافية وكتب الرحلات في العهد العثماني لا تركز حديثها على وادي ريغ وقاعدتها تقرت كقطب تجاري بقدر ما ترد إشارات عنها في سياق الحديث عن مدينة ورقلة وما تضطلع به من دور تجاري باعتبارها شريان أساسي للتبادل انطلاقا من تقرت وانتهاء إلى بلاد السودان الغربي، وهذا المسلك يتصل شمالا ببضائع الموانئ الجزائرية الهامة مثل الجزائر العاصمة، بجاية، سكيكدة، مستغانم وغيرها[82].

ولحسن الحظ جاءت المصادر الإفريقية لتسد هذا النقص في المعلومات والدراسات الحديثة المتخصصة في الشأن الإفريقي والحياة الاقتصادية عموما[83].

7– الحياة الثقافية والدينية

على ما يبدو فإن حظ الحياة الثقافية والدينية في المصادر الجغرافية وكتب الرحلات ليس وافرا سوى بعض النتف المتناثرة هنا وهناك عن بعض العلماء والصالحين ذوي الشهرة الذائعة أو ذكر المراكز الدينية في سياق الرحلات كالمساجد والزوايا مثلا ولكنها تبقى معلومات ضئيلة لا تشفي غليل الباحث الذي يجد نفسه مضطرا لسد هذا النقص باللجوء إلى المصادر التاريخية وكتب التراجم والنوازل الفقهية التي لا تزال موجودة كمخطوطات دون أن ننسى في هذا الشأن أهمية بعض المصادر الإفريقية التي تحدثت عن المنطقة وترجمت لبعض علمائها[84].

ومن أمثلة ذلك المعلومة التي أوردها العياشي عن تقرت عندما حل بها، ذكر فيها التقاءه بأحد طلبة العلم ألا وهو محمد بن عبد الكريم التواتي ووصفه بالمتضلع في الفقه والنحو، ولها بعض الخبرة بعلم العروض، وأشار صراحة بأن محمد بن عبد الكريم قد تتلمذ عليه فدرس عنه " شرح منظومة أبي الفرج الإشبيلي في ألقاب الحديث"، وأشار أيضا إلى تلاميذه من أهل البلد وعلى رأسهم سيدي محمد بن ابراهيم الذي تلقى عنه دراسة كتاب " المباحث المرضية فيما يتعلق بلو الشرطية "، وكذلك كتاب " تنبيه رؤى الهمم العالية على الزهد في الدنيا الفانية "[85].

وتجدر الإشارة إلى معلومة هامة عن إحدى مساجد بلدة تماسين – وهي بلدة كثيرة العمارة والنخيل– وفي مسجدهم هذا صومعة وثيقة البناء، وطويلة جدا فيها نحو مئة درجة، على بابها اسم صانعها وهو المعلم أحمد بن محمد الفاسي، وتاريخ بنائها المسجل بتاريخ 817هـ/1414م[86].

وللوقوف على مزيد من المعلومات عن الحياة الثقافية والدينية، نستعين ببعض الدراسات المحلية التي تكون قد استفادت من المخطوطات المحلية المتواجدة في مساجد وزوايا وادي منطقة وادي ريغ وهو ما نلمسه في الدراسة التي أنجزها عبد الحميد ابراهيم قادري في تعريفه بوادي ريغ من الناحية الثقافية والعلمية[87].

ومن خلال هذه الدراسة المتواضعة عن الصحراء الجنوبية الشرقية الجزائرية (منطقة وادي ريغ نموذجا)، من خلال المصادر الجغرافية وكتب الرحلات خلال العهد العثماني وقفنا على الكثير من المعلومات وخصوصا في الجوانب الطبيعية والاقتصادية ولا سيما النشاطين الزراعي والصناعي (الحرفي) بينما لم تكن المعلومات عن النشاط التجاري كافية ونفس الحكم ينسحب على الحياة الثقافية والدينية، حيث أن هذه المصادر لم تقدم لنا إلا النزر القليل عن الحركة العلمية والثقافية بصورة عامة حيث يلاحظ قلة ذكرها للعلماء والصالحين وعناوين المؤلفات في

مختلف العلوم والفنون، ناهيك عن دور المساجد والزوايا الذي تكاد أخباره شبه منعدمة.

الهوامش:

1. عبد القادر حليمي، جغرافية الجزائر (طبيعية – بشرية – اقتصادية)، ط2، مطبعة الإنشاء، دمشق، سوريا، 1968، ص 50–51 بتصرف.

2. عبد القادر حليمي، المرجع السابق، ص 80.

3. نفس المرجع، ص 88–89–90.

4. انظر عن الأودية الصحراوية وميزاتها، حليمي، جغرافية الجزائر، ص 60 وما بعدها.

5. ابراهيم مياسي، توسع الاستعمار الفرنسي في الجنوب الغربي الجزائري (1881 – 1921)، ط1، منشورات المتحف الوطني للمجاهد، الجزائر، 1996، ص 37.

6. محمد الصغير غانم، التوسع الفينيقي في غربي البحر المتوسط، ب ط، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، ص 108 وما بعدها، بينما لا يشير محمد الهادي حارش إلى هذه الصلات التجارية حيث يحصرها مع أوروبا فقط، التاريخ المغاربي القديم، ب ط، المؤسسة الجزائرية للطباعة، الجزائر، 1995، ص 85 وما بعدها.

7. محمد البشير شنيتي، الجزائر في ظل الاحتلال الروماني، ب ط، ديوان المطبوعات الجامعية، بن عكنون، الجزائر، 1999، ج1، ص 126 وما بعدها.

8. محمد البشير شنيتي، التوسع الروماني في الجنوب، مجلة الأصالة، 1977.

9. محمد بن عميرة، الفتح الإسلامي لبلاد المغرب، ط1، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2008، ص 102–111 . انظر أيضا : موسى لقبال، عبد الحميد حاجيات، الجزائر في التاريخ (العهد الإسلامي)، ط1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، صفحات 23–24–48–49.

10. العيفة شنايت، دولة بني مدرار السجلماسية ودورها في حركة القوافل التجارية، رسالة ماجيستير، تحت إشراف الدكتور موسى لقبال، معهد التاريخ، جامعة الجزائر، 1992.

11. ابراهيم مياسي، المرجع السابق، ص 40.

12. مولاي بلحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص 9.

13. مياسي، توسع الاستعمار، ص 37.

14. أبو عبد الله الشريف الإدريسي، القارة الإفريقية وجزيرة الأندلس (مقتبس من كتاب نزهة المشتاق)، تحقيق اسماعيل الغربي، ط1، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 1983، انظر: ترجمة في مقدمة التحقيق، ص 5، وما بعدها.

15. ابن سعيد المغربي، كتاب الجغرافيا، تحقيق اسماعيل الغربي، ط1، المكتب التجاري للطباعة والنشر، بيروت، لبنان، 1970، انظر ترجمة في مقدمة التحقيق، ص 5، وما بعدها .

16. ابن بطوطة، تحفة النظار في غرائب الأمصار وعجائب الأسفار، تحقيق علي المنتصر الكتماني، ط2، مؤسسة الرسالة، بيروت، لبنان، 1982، انظر أيضا، ابراهيم مياسي، المرجع السابق، ص 37–38، وعن هؤلاء الجغرافيين انظر: زكي محمد حسن، الرحالة المسلمون في العصور الوسطى، ط1، شركة نوابغ الفكر، القاهرة، مصر، 2008، صفحات 34–54–99–110 .

17. عن هؤلاء الجغرافيين والرحالة انظر: محمد الحسن، نفس المرجع، ص 30–37–86–39، انظر

كذلك:

R.Blachére et H.Darmoun ,Geographe Arabe du moyen age , 2 Ed, Paris, 1957, P 369-370-371 .

18. الحسن بن محمد الوزان الفاسي، وصف إفريقيا، ترجمة عن الفرنسية، محمد حجي ومحمد الأحضر، ط2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 1983، ج2، ص 135-137 .

19. مولاي بالحميسي، " مدينة ورقلة في رحلة العياشي "، مجلة الأصالة، عدد خاص عن تاريخ ورقلة وسدراتة، العدد 41، جانفي 1977، ص 60-61 .

20. مولاي بالحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة، ص 17-18، انظر أيضا : مياسي، توسع الاستعمار الفرنسي، ص 39 .

21. مولاي بالحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة، ص 18، انظر أيضا: مدينة ورقلة في رحلة العياشي ،ص 61، ألف العياشي هاته الرحلة بعد الحج الثاني سنة (1064 هـ / 1653 م)، ومن الذين اهتموا بنقل هذه الرحلة وترجمتها كلها أو بعض منها نذكر :

- **Berbrugger (A) ,voyage dans le sud de l'Algérie et des états barbaresques de l'ouest et de l'est par El AÏachi et Moulai Ahmed (exploration scientifique de l'Algérie, sciences historiques et géographiques IX , Paris , 1846) .**
- **Birhmat (Ahmed) , voyage d'Abû Salim Abdallah …El Ayachi , in revue de l'islam , mars , 1899**

نقل إلى الفرنسية جزء من الرحلة وهو الذي يتعلق بما بين وادي درعة وورقلة.

- **Motylinski , Itinéraire entre Tripoli et l'Egypt , Alger , 1900**

و هو القسم الذي يهم المراحل بين طرابلس ومصر.

- **Lakhdar Mohamed , les étapes du pèlerin de Sidjilmasa A la Mecque et Médine , 4éme congrès de la fédération des sociétés sarantes de l'Alfrique du nord , Rabat , 1938 , T2 , p 671-628 .**

22.“ c'est une véritable encyclopédie de science musulmane et de soufisme , ile ent été difficile de passer sous silence cet auteur marocain si connu et estimé dans son pays ” , Livé Provençal , les Historiens des chorfa p 264 .

23. سعد الله أبو القاسم، "رحلة الأغواطي"، مجلة التاريخ، ع ف 2 من سنة 1982، انظر كذلك: دراسة دافيه عنها، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2005، مج 2، صفحات 244-246-247- .

24. درسها أبو القاسم سعد الله في مقال عنوانه " عبد الرزاق بن حمادوش الجزائري ورحلة " لسان المقال "، مجلة الأصالة، العدد 38، الجزائر، 1976، صفحات 2-4-10-11-12-13 وقام بعد ذلك بتحقيقها .

25. الجزائر من خلال رحلات المغاربة، ص 10 وما بعدها .

26. نفس المرجع ن ص 10-19 .

27. بالحميسي، المرجع السابق ن ص 11 .

28. النص الأصلي بالإيطالية، وكانت أول ترجمة فرنسية للكتاب سنة 1556، نفس المرجع، ص 11 .

29. اعتمد الأستاذ ابراهيم سياسي – رحمه الله – عليه في فاتحة كتابه، توسع الاستعمار الفرنسي في الجنوب الغربي الجزائري، ص 38-39 .

30. بالحميسي ن المرجع السابق، ص 11-16-17.

31. نفس المرجع، صفحات 11–20–21–22 .

32. عبد الحميد ابراهيم قادري، التعريف بوادي ريغ، ط1، منشورات جمعية الوفاء للشهيد، تقرت، الآمال للطباعة، وادي سوف، الجزائر، 1999، ص 1–2 .

33. نعني بالسهول هنا، المناطق المنبسطة التي تهتز وتربو وتنبت بسقوط الأمطار ولا نعني بها السهول العينية ذات التربة الخصيبة كما هو الحال في المناطق الشمالية .

34. ابراهيم قادري، المرجع السابق، ص 2 .

35. ومنها وادي المرارة، وادي الأخضر، وادي الزريق، وادي الرقم، وادي البعاج، وادي إتل .

36. التعريف بوادي ريغ، ص 5 وما بعدها، انظر أيضا : عن الحيوانات وأصنافها، ص 6–7 .

37. معجم البلدان، والزاب هو مجموعة من الأقاليم في الجزائر، وهي الزاب الأعلى ويضم منطقة المسيلة، بريكة، مقرة، والزاب الأسفل ويشمل منطقة الزيبان وهو بسكرة وضواحيها شرقا وغربا والزاب الأصغر ويضم المغير وضواحيها، ابراهيم قادري، المرجع السابق، انظر هامش رقم (2)، ص 1 .

38. العبر، مج 7، ج 13، ص 98 .

39. يرى بعض الجيولوجيين أن الوادي الباطني الذي ذكره ابن خلدون، هو وادي إيغارنمار المنحدر من جبال الهقار والطاسيلي .

40. يحد الإقليم من الشمال الزيبان ومن الجنوب ورقلة وبادية سعيد عمر، ومن الشرق وادي سوف وعرق الطيبات، ومن الغرب مواعي أولاد نايل .

41. ابن خلدون، المصدر السابق، مج 7، ج 13، ص .

42. ابراهيم قادري، المرجع السابق، مج 13، ص 4 .

43. الرحلة العياشية (1661–1663)، تحقيق وتقديم، سعيد الفاضلي وسليمان القرشي، أبو سالم عبد الله بن محمد العياشي، ط1، دار السويدي، أبو ظبي، الإمارات العربية المتحدة، 2006، مج 1 ن ص 119 .

44. ابن الدين الأغواطي، رحلة الأغواطي، أبو القاسم سعد الله، أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ط1، دار الغرب الإسلامي، بيروت، لبنان، 2005، مج 2، ص 264–265 .

45. أحمد توفيق المدني، كتاب الجزائر، ط1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 183 .

46. ابراهيم قادري، التركيبة البشرية لسكان وادي ريع أيام بني جلاب، الملتقى التاريخي الثالث، فترة حكم بني جلاب بمنطقة وادي ريغ، الجمعية التاريخية، الوفاء للشهيد، تقرت ومديرية الثقافة لولاية ورقلة، ط1، الآمال للطباعة، وادي سوف، 1999، ص 20 .

47. الرحلة، أبحاث وآراء، مج 2، ص 265 .

48. العبر، مج 7، ج 13، ص 98 .

49. ابراهيم قادري، المرجع السابق، ص 29 .

50. الأغواطي، المصدر السابق، ص 265 .

51. انظر : العوامري الساسي، كتاب الصروف في تاريخ الصحراء وسوف، تحقيق الجيلالي بن ابراهيم العوامر، ط2، منشورات ثالة، الأبيار، الجزائر، 2007.

52. ابراهيم قادري، التركيبة البشرية لسكان وادي ريغ، ص 21، التعريف بوادي ريغ، ص 24 .

53. نفس المرجع، التركيبة، ص 21، التعريف، ص 25 .

54. نفسه، التركيبة البشرية، ص 21، التعريف بوادي ريغ، ص 25 .

55. عبد القادر حليمي، جغرافية الجزائر، ص 103 وما بعدها، انظر أيضا : ابراهيم قادري، المرجع السابق، في نفس المكان .

56. عبد القادر حليمي، المرجع السابق، ص 103 .

57. ابراهيم قادري، المرجع السابق، ص 24 .

58. نفس المرجع، ص 22 وما بعدها.

59. Charle Feraud , le sahara de Constantine , Alger , 1884.

60. Ibid.

61. المرجع السابق، التركيبة البشرية، ص 24–25 .

62. كتاب الجزائر، ط1، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص 183 .

63. رحلة الأغواطي ضمن أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، مج 2، ص 264 .

64. المصدر السابق، ضمن أبحاث وآراء، مج 2، ص 264 .

65. نفس المصدر، ضمن أبحاث وآراء، مج 2، ص 264 .

66. كتاب العبر، مج 7، ص 96–100 .

67. وصف إفريقيا، ص 135 .

68. الرحلة العياشية، ص 119 .

69. محمد الطاهر عبد الجواد، عاصمة وادي ريغ (تقرت) أيام بني جلاب، ضمن الملتقى التاريخي الثالث في 23–24 أفريل 1998، حول فترة حكم بني جلاب بمنطقة وادي ريغ، ط1، منشورات جمعية الوفاء للشهيد، تقرت، الجزائر، 1999، ص 57 .

70. رحلة الأغواطي، ضمن أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، مج 2، ص 265 .

71. عبد الحميد ابراهيم قادري، التعريف بوادي ريغ، ص 41 .

72. الرحلة (أبحاث وآراء)، مج 2، ص 264.

73. وصف إفريقيا، ص 135 .

74. المرجع السابق، ص 11.

75. وصف إفريقيا، المصدر السابق، ص 135 .

76. عبد الجواد، المرجع السابق، ص 57 .

77. ذكر الحسن الوزان أنه في تقرت وحدها نحو ألفين وخمسمائة كانون، وصف إفريقيا، ص 135 .

78. التعريف بوادي ريغ، ص 42–43 .

79. خضري يمينة، الحياة الاقتصادية بمنطقة وادي ريغ، ضمن الملتقى التاريخي الثالث (فترة حكم بني جلاب بمنطقة وادي ريغ)، 23–24 أفريل 1998، ص 87–88 .

80. عبد الحميد ابراهيم قادري: التعريف بوادي ريغ، ص41–42.

81. خضري يمينة: الحياة الاقتصادية بمنطقة وادي ريغ ضمن الملتقى التاريخي الثالث عن فترة حكم بني جلاب بمنطقة وادي 1998، ص81–82–85، محمد العربي الزبيري: التجارة الخارجية للشرق الجزائري في الفترة ما بين 1798–1880، المؤسسة الوطنية للكتاب، ط2، الجزائر، 1984.

82. عبد القادر زبادية: ورقلة عروس مدائن الجنوب الجزائري، مجلة الأصالة، عدد خاص عن تاريخ ورقلة وسدراتة، ع 41، جانفي 1977، ص 142 وما بعدها.

83. ومنها محمود كعت: تاريخ الفتاش، تحقيق هوداس، باريس 1964، ص 319، ولمؤلف مجهول تذكرة

النسيان في أخبار ملوك السودان، باريس 1901، صفحات 73–74–100، انظر

84. ومنها أحمد بابير الأرواني: السعادة الأبدية في التعريف بعلماء تنبكت البهية، مخطوط، المكتبة الوطنية الحامة، الجزائر، تحت رقم 9049، وقد تم تحقيقه على يد د. الهادي المبروك الدالي.

85. العياشي: الرحلة، ص121–122، وقد نبهنا الأستاذ جعفري مشكورا أن شخصية محمد بن عبد الكريم التواتي هو من واحة تمنطيط بأدرار، إلا أنه ليس بشخصية عبد الكريم المغيلي الغني عن التعريف، كما ظن د. مولاي بلحميسي –رحمه الله– في كتابه الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني.

86. العياشي: المصدر السابق، مجلد 01، ص119–120.

87. ابراهيم قادري: التعريف بوادي ريغ، صفحات 46–47–48 وما بعدها